من أجل ثقافة «افريقاسيوية»

بقلم الكاتب الجزائري : مالك بن نبي
نقلها عن الفرنسية : الطيب الشريف

ان مؤتمر باندونج بتجميعه لمعطيات المشاكل العضوية المعينة ، المتعلقة بالشعوب الافريقاسيوية ، وبعلاجه لموضوع اتجاه هذه الشعوب ، قد كون في الواقع الرسمال البدئي لحضارة معينة .

فكل حضارة تحتم رسمالا بدئيا مكونا من : الانسان ، والتراب ، والوقت . لان الحضارة تركيبة من هذه العناصر الثلاثة الاساسية . ثم يأتي دور العامل الاخلاقي «المنتج» هذه التركيبة ، اعني لتحديد اندماجها الداخلي ، والا نكون مهددين بالوقوع في مناقضة : فعوض ان نكون **« كلا »** ، محددا في بنائيته وفي مصيره ، نشكل **« كومة »** عشوائية (لا متهيئة) مزعزعة ، كومة ليس في مقدورها ان تسلك اتجاها معطى ، وتحتفظ به ، ولا ان تكون لها مهمة ما . .

ولقد جمع المؤتمر كل المعطيات البدئية لهذه المهمة . ولكننا عندما نكون الرسمال البدئي ، يجب ان نحدد طرق استعماله ، ولقد اشارت الى هذه الطرق مداولات المؤتمر وتقريره النهائي من وجهة تخطيطية ، اذ حددت المداولات والتقرير الختامي في رسم اولي البنائيات التواقة الى تلقي لبوس التاريخ الافريقاسيوي ، فكان ان اعتبرت الاشياء بالضرورة من اسسها داخل نطاق هذا التخطيط . ولكن الاشياء لا يمكنها ان تلبث هنا : في حالة التخطيط ، لان مشاكل التطبيق لا بد وان تبرز في النهاية .

فنحن عندما نتخطى الاعتبار التحليلي لمعطيات الحضارة الرئيسية ، باعتبارها نتاجا للانسان ، والتراب ، والوقت، الى الاعتبار التركيبي في التطبيق (وذلك باعتبارنا التاريخ مجالا للتطبيق والتجريب معا) نجد ان المشكلة تنحصر في **تحديد الشروط الفضلى لخلق هذا النتاج في الحد الادنى من الوقت .**

فكل شيء يؤول عمليا الى تغيير الواقع المنعكس على النموذج المجتمعي الافريقاسيوي،وعلى المنظر البشري المتدمن طنجة الى جاكرتا . غير ان كل حقيقة اجتماعية هي في جذرها الاصيل قيمة ثقافية معينة ، محايثة في الوضع البشري وفي المنظر الذي يحيط به سواء بسواء . واذن فكل تفكير في مشكلة الحضارة هو في اساسه تفكير في مشكلة الثقافة . والحاصل ان مؤتمر باندونج قد تناول المشكلة الثقافية ، بالرغم من ان التلاخيص الصحفية قد اولت اهتماما متزايدا الى المظاهر السياسية . وكما نوه بذلك احد مناشير « اليونسكو » : « فقد ارتأى المؤتمر – في الحقل التربوي – ان تنشر سلسلة « منوغرافية » (١) تتناول المظاهر الاجتماعية ، والاقتصادية ،: والثقافية في البلاد المساهمة في باندونج .

والمتبقى هو ان نعرف بطبيعةالحال الى اي حد تستطيع تبادلات المعلومات هذه ان تكون القواعد الثقافية الافريقاسيوية ، وفي أي حد يمكننا – ابتداء من هذه التبادلات – ان نخلق عناصر الثقافة التواقة الى تغيير شروط كينونة الجماهير الافريقاسوية ، وفي اي حد يمكننا تحديد طبيعة هذه الثقافة . صحيح ان هذه التبادلات ضرورية ، ولكن هل هي كافية؟ ولكي نجيب على هذاالسوال نلجأ – كما هي الحال في الفصول السالفة الى القسطاس الذي تمدنا به القدوة الغربية. فعلى محور واشنطن–موسكو وحتى الى طوكيو ، نجد المشاكل العلمية والعقلية ، والاجتماعية ، هي نفسها من أقصى طرف الى اقصاه . فالتبادلات الثقافية تتم – بالرغم من التوترات السياسية– في نفس الحبكة الحضارية . وانها لتتوالى حتى على التصميم الذري كما رأينا ذلك منذ مؤتمر جنيف !.. ومما لا شك فيه ان هناك علاقة مباشرة بين هذه التبادلات والمنظر الذي يمكن ان يتملاه زائر سماوي من واشنطن الى موسكو ، وبالتالي بينها وبين الوضع البشري بشروطه على هذا المحور . على انه اذا كانت هذه التبادلات : **أسبابا محددة** في اطار معين، وفي مقياس معلوم، فهي في مقياس آخر ، **مفعولات محددة :** واذن فهناك مجال لاستبعاد ما عساه يحدث من ان تقنع ظاهرة طارئة، ظاهرة اساسية!.. ان عندما يذهب « باليه » الاوبرا الباريسية الى موسكو، او يأتي « باليه » الاوبرا الموسكوفية ليقدم استعراضاته على المسرح الباريسي ، فان الذي يهمنا استخراجه كدرس لبناء الافريقاسيوية ليس هو مجرد تبادل هذه الفوق الفنية الراقصة . . ان الدرس متضمن في ان كل واحدة من هذه الفرق قد وجدت من جديد خلال مجرى تنقلها – مع تفاوتات طفيفة – جمهورها ، ونفس جوها ، ونفس الانفعال الاستاطيقي (الجمالي) . نعم ، ان انتقالها يمتن هذه « الوحدة » على التصميم الفني ، او يقوم بتوثيق « الروابط الثقافية » كما يقال في الاسلوب الديبلوماسي !.. ولكن

(١) الفصل الخامس. من القسم الثاني من كتاب : «النزعة الافريقاسيوية» Considérations générales sur une culture «afro-asiatique»

(١) المنوغرافيا : La monographie هي الدراسة «التاريخية – الجغرافية» المتعلقة بمنطقة واحدة او بانسان فرد المترجم

« الفن » نفسه يجد في ذات الوقت خلال مجرى هـذا الانتقال ــ وهذا التبادل ــ مستلهمات جديدة ، ودفعات مستجدة كذلك . وهكذا يلتقي السبب بمفعوله ضمن نتيجة اجمالية تصدر في نهاية الامر عن الواقع الكائن مسبقا . على انه من المؤكد ان « الباليه » الموسكوفيتي لا يمكنه ان يجد جمهوره ، او نفس الصدى الذي لاقاه في باريس اذا ما حل بمدينة « فاس » مثلا !.. (١) فالتبادل يكاد يكون لا مجديا، او هو يفقد معناه على الاقل عندما يحدث خارج الاطار الذي يربطه بقيمته المجتمعية ومعناه الثقافي. ان تعريف التبادلات الفعالة المعتمدة في تعزيز انشاء ثقافة ما ، يجب ان يبدأ من هذا الاعتبار العام عن « البيئة » الثقافية .

فالثقافة هي اولا وبالذات : « بيئة » معينة يتحرك داخلها الانسان : انها تغذي الهامه ، وتشرط فعالية تبادلاته . فهي « جو » مركب من : الالوان ، والنبرات ، والروائح ، والعرف والعادات ، والاشكال ، والايقاعات ، والحركات التي تطبع على حياة الانسان اتجاها ، واسلوبا خاصا من شأنهما ان يشحذا خياله ، ويلهما عبقريته ، ويغذيا مواهبه الخلاقة . انها الرابطة العضوية بين الانسان والمنظر الذي يحيط به. وهي ما يمنح نظرة الزائر السماوي نموذجا مجتمعيا معينا متماثلا من واشنطن الى موسكو ، ومتباينا في كل ملامحه عن النموذج المجتمعي الاخر المنبت على المنظر الممتد من طنجة الى جاكرتا .

لقد اذعنت الثورة الصينية الى منطق طبيعي عندما بادرت في الحين والتو الى تغيير الاطار التقليدي . فالذي يريد ان يغير الانسان يجب ان يبادر الى **تغيير وسطه الثقافي،** وذلك بخلق بيئة جديدة .

ولقد عيب على الثورة الصينية انها حولت الانسان الى « نملة زرقاء !.. » (une fourmi bleue) والواقع انه يجب ابدال احد حدَّي المقارنة لتصيب كبد الحقيقة : فالعلاقة ليست بين « الانسان » و « النملة الزرقاء » ولكنها بين هذه الاخيرة وتلك « الدودة » التاعسة التي كانت تزحف داخل الاطمار والاسمال في مخادر الافيون حيث يتلاقى الباحثون عن النسيان بالباحثين عن كل مستجلب غريب !..

ان « النملة الزرقاء » ليست هدفا (غاية في ذاتها) ولكنها امارة على ان مرحلة « الدويدة » قد تخطيت !..

ولن يتوانى الانسان الصيني عن اللحاق بمرحلة«الانسان»، وذلك اذا لم يكن قد لحق بها بالفعل !.. ان ظهور « النملة الزرقاء » في هذه الحبكة ليس الا امارة الثورة الثقافية التي تشرط تغيير « البيئة » التي كانت تزحف فيها « الدودة الصينية » ، والتي تشرط بالتالي تدرجية هذه الاخيرة نحو حالة مكتملة !.. ان التحقيق الصحفي الذي نحن بصدده(٢) يصور المأساة الداخلية التي يعانيها كاتبه ازاء الثورة الصينية اكثر مما يصف الحقيقة الموضوعية لهذه الثورة . وفضلا عما يمد به القارىء من معلومات نافعة ، ومنظورات جد مفيدة ، فانه يهبه الاحساس بالحوار الداخلي الذي يعبر به الكاتب عن خيبته !.. فالظاهر ان الكاتب يمثل هنا موقف الاستاطيقي المتحسر ، الذي يرى الفرشاة الطاقية (وحتى الفظة بعض الشيء !..) بيد « ماوتسي تونج » وهو يرسم بها محيا الصين الجديدة على تلك القماشة العتيقة المهيبة التي يحلو للكاتب المتلهف للرؤى الدخيلة ان يتملى عليها الملامح الوقورة « للصين العتيقة » ... ومن هنا نفهم الانفعال ، والصيحات المنادية : « بالفاندالية » !.. ولكن هل يريد المحقق الصحفي ان يتحدث كاستاطيقي او كمؤرخ؟ مهما يكن الامر فان المشكلة الثقافية توضع في نفس تلك البؤر بالنسبة الى الافريقاسيوية ، ولا يمكن ان توضع في المستوى الثانوي بل يجب وضعها في المستوى الاولي من التغيير ، ابتداء من اطار جديد . وفي هذا المستوى تستقر مشكلة الثقافة على تعريف اساسي يعانق مظهرا بيولوجيا ومظهرا بيداغوجيا .. فالثقافة تقوم في دورها التاريخي بالنسبة الى الحضارة بوظيفة الدم بالنسبة الى البنية العضوية الحية . فالدم ينقل الكريات البيضاء والحمراء التي تتعهد الحيوية والتوازن في البناية العضوية ، وتكون جهاز مناعتها الذاتية . وكذلك الثقافة فهي تنقل الافكار الشعبية لدى الجماهير ، والافكار الصياغية لدى النخبات !. وهذان العنصران يغذيان عبقرية الحضارة التي تدين لهما بتدفعها وابداعيتها .

ولكن من اين يأتي جوهر هذين العنصرين ؟ اننا نضع بهذا السؤال المشكلة البيداغوجية . ان اية حقيقة اجتماعية في جذرها الاصيل قيمة ثقافية ممارسة ، وعلى هذا فالجوهر الموجود في الحقيقة الاجتماعية موجود في القيمة الثقافية بالضرورة . فاذا حللنا حقيقة اجتماعية ما ، ــ اي نشاطا اجتماعيا محسوسا ــ سرعان ما نجد في حالتها او في اطرادها تقدميا ، اربعة عناصر أساسية يمكن ان نعبر عنها في حدود بيداغوجية : بالاخلاقية ، والجمالية ، فالصياغة ، ثم « المنطق العملي » : (الذرائعي) : (la logique pragmatique) (١) فكل تحقيق لوضع اجتماعي وكل نتاج حضاري هو في ماهيته تركيبه من هذه العناصر الاربعة .

والذي يترتب على هذا هو ان مشكلة الثقافة الافريقاسيوية

---

(١) (Fez) احدى عواصم مراكش قديما ، واحدى مدنها الرئيسية حاليا ــ «المترجم»

(٢) نعني التحقيق الذي نشر بباريس في جريدة « العالم » (le Monde) (فبراير سنة ١٩٥٦) تحت عنوان : « ستمائة مليون صيني في الدوامة الشيوعية » بامضاء : « م. جيلان : (M. Guillain) (المؤلف).

(١) يورد المتخصصون الاصطلاحين : « العملي » و « الذرائعي » في التعبير عن كلمة «Pragmatique» وعندما راجعت المؤلف في ذلك فضل التعبير ب : « العملي » وهو تفضيل متمش من ناحية مع اصل الاشتقاق الاغريقي :«Pragma»الذي يرادف في الفرنسية كلمة «action» بمعنى الفعل او العمل ، ومن ناحية ثانية مع النزعة البرجماتية (Pragmatisme) بمفهومها الراهن كمذهب يتخذ قسطاسه للحقيقة القيمةالعملية. مع ملحظ ان التركيب:«منطق عملي» Logique Progmatique اصطلاح استحدثه المؤلف في اللغة الفرنسية ولم يسبق اليه على حد قوله . (المترجم)

ليست بيداغوجيا الا مشكلة هذه التركيبة .

فالافريقاسية تتمثل ــ في نقطة انطلاقها ــ كمنهج للقوى الاخلاقية والعقلية ، والقوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وهي في ادلائها الى هذه النتيجة يجب ان تقدم ــ فضلا عن كونها حضارة معينة ــ تركيبة لكل هذه القوى مجتمعة ...

ان الاندماج الداخلي الذي وضعته باندونج بين جماح هذه الطاقات قد استعير من مبدأ مفاهيمي مشترك مقام في أساسه على نزعة الشعوب الافريقاسيوية المناهضة للاستعمار . ولكن التطور الذي يجب ان يتخطى مرحلة النزعة الاستعمارية ... وعلى هذا يجب على الافريقاسيوية ان تؤسس اخلاقها على مبدا اكثر ايجابية من مبدأ المناهضة للاستعمار، ولكن لا يجب ان يكون هذا المبدأ ذا ماهية دينية. لقد سبق ان وجدنا في الفصل السالف دواع رئيسية تؤكد ــ في التصور الاخلاقي للافريقاسيوية ــ قيمة التعدد الضروري ــ أو « التكافؤ الزيجي » : (la bivalence) على الاقل ــ في مبدأ الافريقاسيوية الاساسي، حتى لا تضفي عليها صبغة « الكتلة » العقائدية .. اذ لا يمكن في هذه الثنائية ان تنحصر المسألة مطلقا في المحاولة لنزعة « تلفيقية » ، ولكن في عقد حلف اخلاقي بين الاسلام والهندوكية ، حتى يتحملا عبء **مهمة « ارضية » واحدة.** وفي هذه الحالة لن يتاح تكرار المحاولة اللامجدية التي قام بها الامبراطور « أكبر » (١) الذي اراد في القرن السادس عشر ان يؤسس مملكته بالبلاد الهندية على نزعة « تلفيقية » اسلامية ــ هندوكية !. .

ان الديانات لا تنصاع بسهولة لتكون وسائل طيعة لمثل هذه الغايات . واذا وجب استخراج درس من الماضي في هذا المجال فان تاريخ الغرب هو الذي يمدنا به ايضا ... اذ انبنت الحضارة الغربية في نقطة انطلاقها على نظام اخلاقي مسيحي كان قد ضمن لها التماسك والاندفاع الضروري لانطلاقها ، غير ان تطورها قد غير تدريجيا من هذا الاساس المفاهيمي فاحاله الى نظام مختلط يمثل فيه الفكر الكاثوليكي والفكر البروتستنتي ، الفكر الحر والفكر اليهودي بطريقة مكتملة التناغم .

وعلى هذا فليس هناك مجال للبحث عن الاندماج والتناغم لا في مبدأ واحدي ، ولا في نزعة « تلفيقية » دينية . .

لقد كفت المناهضة للاستعمار في نقطة الانطلاق كوسيلة للاندماج بين العناصر الماثلة في باندونج ، ولكن فضلا عن كونها سوف تتخطى بحكم التطور ، فان الواجب يقتضي ان تجتاز بحسم . ولا شكر ان الديبلوماسي الهندي النابه السردار : « بانيكار » : (Pannikar) يعتقد ذلك ضروريا « كوحدة اساسية » تتمكن باندونج بواسطتها من ان تمنح للافريقا سيوية منطلقها ، ولكن الامر الذي لا ريب فيه ايضا انه يعتقد ان ذلك **غير كاف تماما** حيث انه يعتبر ــ في ذات الوقت ــ ان تظاهرة باندونج : « اجتماع مفارقات » !. .

ان قصور مبدأ المناهضة للاستعمار ــ بالرغم من فعاليته الموقوتة ــ امر متيقن منه . فلقد اوحى ابان فترة تحرير الشعوب المستعمرة بتضحيات نبيلة وانجازات نزيهة ، كما اوحى بملحمة « الستياجراها » (١) الكبرى التي حررت الهند . ولكن ما ان تجتاز المرحلة الحماسية حتى تعجز نزعة المناهضة للاستعمار عن ان تتحد في الهوية مع «مصلحة عليا » تواقة الى مواكبة حضارة معينة او ان تهب لها التدفع والمثل الاعلى .

وعلاوة على ذلك فبمجرد ما تعطي المشاعر الايجابية ــ التي تعبر عنها المناهضة للاستعمار بصفة مؤقتة ــ كل محتواها للتاريخ ، فان هذا الافراغ يمكنه ان لا يدع مجالا لسوى المشاعر السلبية ، تلك المشاعر المصنوعة من احقاد الشعوب المضطهدة ازاء غاصبيها!. وعندها لا يمكن للقضية ان تنحصر في استنقاذ العالم من احتقار الكبار للزج به في احقاد الصغار !.. وانه لمن دواعي العزاء ان يكون موجهو الثقافة الافريقاسيوية واعين لهذا الامر على ما يرام . ولقد تكرم احد النابهين من بين هؤلاء الموجهين الا وهو سيادة مولانا : « أبو الكلام آزاد » فأقام لنا الدليل شخصيا على ذلك ... (٢) فقد رغب سيادته في ان يلفت انتباهنا للمسؤولية التربوية الخطيرة التي لا يجب ان تدع مجالا لتغلغل جذور الحقد : « في قلوب اجيال الهند الناشئة وفي أرواحها ... » تحت ستار المناهضة للاستعمار . .

ونحسب ان مثل هذا التوجيه لا يختص بالمسؤولين عن توجيه الثقافة في موطن غاندي فحسب ، ولكنه يخص كل البلاد الافريقاسيوية . انه التوجيه الذي يدل هذه الشعوب في غير التباس الى طريق التحرر الداخلي الذي يجب ان يتمم ــ على التصميم النفسي والاخلاقي ــ عمل التحرير المنجز على التصميم السياسي والقومي ، لان الزيغ الاستعماري لم يمس الانسان المستعمر في الحبكة السياسية وفي ارتباطاته الاجتماعية فحسب ، ولكنه امس به حتى في اعماقه ، وفي بنائتيه الجذرية : لقد آذى روحه ووعيه « بذهانات » : Psychoses وحرمانات شلت فيه

---

(١) « اكبر » : (Akbar) امبراطور منغولي من سلالة : « تامرلان » (Tamerlan) ولد في « امركوت » (Amarkot) واتيح له بعد توليه لعرش الهند ان يوسع من دائرة امبراطوريته وان ينظمها بمعاونة وزيره « ابي الفضل » ... وبقيت سنة تنصيبه امبراطورا على العرش الهندي : (سنة ١٥٥٦) بدء التاريخ العهد الشرقي الاعظم او عهد « الاكبر » (عاش من سنة ١٥٤٢ الى سنة ١٦٠٥) (المترجم)

(١) (la satyagraha) تركيب استحدثه غاندي وصار يستعمل استعمالا عالميا ويعني : « طريق الحقيقة » : (le chemin de la vérité) (المترجم)

(٢) يشير المؤلف الى مراسلة شخصية بينه وبين المولى « ابي الكلام » وهو وزير التربية والتعليم بالهند حاليا . (المترجم)

كل مجهود خلاق وذلك في شمال افريقيا بالخصوص ..(١) والموجع في الامر ان نرى الانسان المستعمر يتخذ في رده على ذلك موقف اتهم او موقف المتهم وذلك في كتاباته بالخصوص .. وهذا الموقف السلبي من شأنه ان يضر بتفتح « أناه » المكبوتة على الدوام . فمشكلة التحرير يجب ان توضع اذن في مظهرها النفسي ايضا ، حيث يمكن ان تصفى هذه « الذهانات » وهذه الحرمانات ولو جزئيا على الاقل ، عندما نخلص الانسان الافريقاسيوي من تلك المشاعر السلبية التي يدين بها لنزعته المناهضة للاستعمار ، ومن احقاده بالخصوص !.. واننا لعلى يقين كاف من اهمية هذا العمل النفسي في مشكلة الثقافة الافريقاسيوية ، وان اهميته لتزداد وقعا بقدر ما تتبدى الاعمال الاجتماعية الهامة فيما وراء المطالبة « بالحقوق » القومية ، وبقدر ما تصير المستلزمات ذات الصبغة البشرية الدولية اكثر الحاحا لان مشكلة السلام والحرب تتطلب بالخصوص عزما دقيقا جليا. وحينئذ لا تستطيع الاحقاد التي هي « عمياء » ـ كما يقال ـ ان تعزز اتخاذ مواقف لا يمكنها ان تكون فعالة الا اذا كانت نزيهة !..

واذن فلا يمكن للثقافة الافريقاسيوية بحكم دواع جد متباينة ان تستقي الهامها الاساسي من مجرد نزعة المناهضة للاستعمار المدعوة ان التلاشي مع علتها المباشرة التي هي : النزعة الاستعمارية . اذ يجب عليها ان تبحث عن: « خلاقها » son éthos في مجموعة من القيم الروحية والتاريخية التي تتقبلها الشعوب الافريقاسيوية كنوع من « الكلاسيكية » المضاهية لتلك التي امدت الغرب بها البشريات الاغريقية ـ اللاتينية ، فوجد فيها القائد ولقوت : المعين الذي روى منه عبقريته من « فيدياس » : phidias الى « ميكال آنج » (او ميخائيل الملاك) ، والذي وجد فيه معايير سلوكه العقلي من ارسطو الى ديكارت .

ان « الكلاسيكية الافريقياسيوية » يمكن ان تجد مقوماتها اولا وبالذات في المركبات النفسية التي لعبت دورا في النضال من اجل التحرير وذلك لان هذه المركبات مشتركة بطبيعة الحال بين كل الشعوب التي آزرت هذا النضال . ثم يمكن لهذه « الكلاسيكية » ان تجد مقوماتها بين عوامل التوجيه التي تختط للافريقاسيوية مهمتها الخاصة في العالم ، والتي ما ان توجد الشعوب الافريقاسيوية ازاء خطر حرب ، حتى تبرز لها مقتضيات المصير المشترك بين هذه الشعوب السائرة تحت بيرقه !... واذا كان الالهام الكلاسيكي قد اتجه في عصر آخر أكثر فأكثر نحو « الاستاطيقا » ـ وذلك في عصر النهضة الاوروبية بالخصوص ـ فان الثقافة الافريقاسيوية مستحثة بحكم الحاح مأساة القرن العشرين الى الالتفات نحو الاخلاق اولا، وذلك لتحديد مثلها الاعلى ، ثم نحو الصياغة ثانيا لتتمكن من خلق وسائلها . ان انقاذ الانسان من البؤس على محور طنجة ـ جاكرتا ، وانقاذه من الحرب على محور واشنطن ـ موسكو هما بالنسبة الى الافريقاسيوية الضرورتان المسيطرتان على كل مشاكل كينونتها ومشاكل اتجاهها . والذي يترتب على ذلك ان هذه الضرورة المزدوجة التي يجب ان تواجهها الافريقاسيوية وجها لوجه تهيمن بطبيعة الحال على كل تعاريف ثقافتها كما تهيمن قبل كل قبل على التعريف الاساسي لاخلاقيتها .

وسنذكر في الصفحات المقبلة عندما نتصدى لدراسة حمولتها الخاصة ، اي عنصر ميتافيزيقي اساسي يمد به الاسلام هذا التعريف « لخلاق » الافريقاسيوية . كما نذكر بالخصوص المبدأ الذي يمد به التصور الانساني بغية استنقاذ الانسان المستعمر من سقطته تحت كلكل امبراطورية النزعة الاستعمارية والقابلية للاستعمار . ولسوف تجد الافريقاسيوية ـ بفضل ثنائيتها الروحية ـ مبدأها الاخر في «اللاعنف» الذي نعرف دوره المنقذ في تحرير الهند، والذي يلهم اليوم المحاورة الدولية (١) بوصفه مقياسا ملازما من هنا فصاعدا لجميع البوادر البشرية في المجال السياسي . على انه لا يمكننا ان نضم هذه الملحمة الى الافريقاسيوية من غير ان ندخل فيها لاول وهلة بطلها الاسطوري : انه غاندي ، البطل الذي سوف ينعش محياه المحاط بهالة اكليل استشهاده ، صفحة من انبل صفحات تاريخنا المعاصر واشدها تأثيرا .

على ان الفصل الاول من ملحمته فصل رمزي : اذ نرى فيه المهاتما يخوض المعترك السياسي بصحبة رفيق مسلم هو « السث حاجي حبيب » الذي أمد غاندي بمؤازرته الاخلاقية والمادية منذ اول تظاهرة « للستياجراها » ابان تدشينها في الحادي عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٠٦ في المسرح الامبراطوري بجهانز بورج . فهذا الرمز لم يكن يستهدف التصميم السياسي فحسب ، ولكنه استهدف التصميم الروحي كذلك . ونحن نعرف مدى تعطش غاندي الى الاكتراث من كل الموارد الروحية : القرآن ، والانجيل و « ألبهجفاد ـ جيتا » . (La Bhagavadgîtâ) (٢)

ومع ذلك فالاقداس الاثرية لا تزال جد غنية في آسيا وافريقيا . ان ثراءها بالوجوه العزيزة والاسماء الوقورة والامثلة الحية يزود كل من يتصدى لانشاء « كلاسيكية » افريقاسيوية بما يكفيه من العناصر الاخلاقية .. ولسوف

---

(١) لقد قمنا بتحليل هذا المظهر في مؤلف سالف بعنوان : « مهمة الاسلام » نشر دار الساي بباريس :
(Vocation de l'islam. Edition du Seuil Paris)
حيث لاحظنا هذا النفوذ الاستعماري الذي يؤثر على المستعمر كواقع شال للنشاط وكترهة رادعة في الوقت ذاته !..
(المؤلف)

(١) انه لا يخلو من دلالة ان تتناول المحادثات الصينية ـ الامريكية المتوالية في جنيف (نوفمبر سنة ١٩٥٥) في احدى مراحلها موضوع الوصول الى اتفاق مؤسس على مبدأ « اللاعنف » وقد ذكرت الكلمة بصريح العبارة !...
(المؤلف)

(٢) فصل من كتاب الهندوكية المقدس : « المهابهاراتا » حيث يتولى «كريشنا» شرح الفلسفة الغيبية لعرجونا . (المترجم)

يتاح لفاندي بلا ريب ان يأخذ مكانه بين اللوحات المهيبة الماثلة في متحف أثري حفي بالاسرار !..

ولكن بصرف النظر عن هذه العناصر التي تعرف «خلاق» الثقافة فان هذه الاخيرة تعرف ايضا بالاستاطيقا . فاذا كانت الثقافة اولا وبالذات « بيئة » معينة ، فانه من المؤكد ان العنصر الاستعاطيقي يلعب دورا رئيسيا . لان الابداع مرتبط على وجه التحقيق بالانفعال الاستاطيقي . وحتى فعالية الفرد نفسها ترتبط بمعايير استاطيقية معينة . فنحن نعرف مثلا ان « البشع لا يباع » في الصناعة والتجارة : (Le laid ne se vend pas) على ان القيمة الاستاطيقية يجب ان تعتبر بصورة خاصة من وجهة نظر بيداغوجية : لانها تتضافر على خلق نموذج بشري خاص من شأنه ان يمنح الحياة ـ بحكم أذواقه وارهافاته الجمالية ـ ايقاعا معينا ، كما يهب التاريخ اتجاها محددا . وانه لمن المؤكد ان مجرد القيام بتغيير « الدودة » الصينية المغبرة المتربة ، الخلقة الاسمال ، الى « نملة زرقاء ! » قد منح (بهذا التغيير الخارجي فحسب) كل الحياة الصينية ، المحرض ، والدافع الخلاق ، والمقياس التربوي الشعبي ، والذوق والحركية الجديدة التي تضافرت جميعها على خلق قيم اجتماعية سامقة !..

اجل ! ان الكنوز الفنية التي تملكها افريقيا واسيا تقيم الدليل على الثروة التي يمكن للافريقاسيوية ان نجد فيها دائما ـ وفي نطاقها الخاص ـ العناصر الاساسية لتكوين الجزء الاستطاطيقي من كلاسيكيتها .

ومن ناحية اخرى ، فان الثقافة الافريقاسيوية لا يمكن ان تعرف ـ في مثل هذا العصر الصياغي الذي يرضخ فيه التطور البشري، كما لم يكن ذلك في وقت من الاوقات ، الى عوامل التوجيه والتسريع الصياغية ، والى اعتبارات السرعة الانتاجية ـ دون الالتفات الى العوامل الديناميكية (او الضرمية) التواقة الى تعزيز اكتمال شعوب اسيا وافريقيا ماديا ، وتسريع هذا الاكتمال كذلك .

ومع ذلك فان تصميمات التجهيز القومية التي ظهرت الى النور خلال هذه السنوات الاخيرة في البلاد الافريقاسيوية قد اشعرت **عمليا** بتلك الضرورات التي تتطابق ـ بطريقة طبيعية في جملتها ـ مع الفصول العضوية للثقافة . فالصياغية ، و « المنطق العملي » ـ (وهذا الاخير يستجيب على التصميم الاقتصادي الى السرعة الانتاجية ، وعلى التصميم الفردي الى منطق معين للفعل) ـ يكونان فصلين هامين من تلك الفصول .

فالواقع ان الصياغية ، والمنطق العملي ، كانا في علاقة مباشرة مع المشاكل العضوية التي تنوولت في باندونج تلك المشاكل التي يجب على كل بلاد افريقاسيوية ان تتصدى لحلها بطرقها الخاصة . فالعنصران لهما مواطن التقاء مباشرة وعاجلة بمصير الانسان الافريقاسيوي وبالمنظر الذي يحيط به . كما ان العنصر الصياغي يفرض نفسه مباشرة بمجرد ما تتصدى اي بلاد الى تصميم تجهيزها القومي . وان تكامله مع البرنامج البيداغوجي يبدو على نحو من الانماء اوتوماتيكيا ، كضرورة تفرض نفسها تلقائيا على البادرة الحكومية من ناحية ، وعلى البادرة الخصوصية من ناحية اخرى . وهكذا تتلاقى بكل الوضوح حاجة الدولة الى الاخصائيين مع رغبة الافراد الخصوصيين الذين يريدون المساهمة في المعمعان الصياغي ضمن نفس الضرورة العضوية .

اما المنطق العملي ، فيرتسم هو الاخر كحاجة مباشرة في ثقافة « نهضة » يتعين عليها تغيير « البيئة » التي تتشكل فيها عبقرية حضارة يتطور داخلها الانسان . لان المنطق العملي هو الذي يشرط شكل النشاط واسلوبه وايقاعه ، وكل **مظاهره الدينامية** . اذ تتباين الدينامية الخاصة الماثلة على محور واشنطن ـ موسكو ، مع الدينامية التي يمكن للزائر السماوي ان يشاهدها على محور طنجة ـ جاكرتا . كما يمكن لهذا الزائر ان يلاحظ بصورة خاصة تباينا رئيسيا يستنتج منه : ان الثرثرة تنمو بقدر ما يتضاءل النشاط والحركية . فحيثما يسود الكلام تثاقل الحركة !.. ولا شك ان منظمي باندونج قد ارادوا انقاذ المؤتمر من الانغمار في دوامة الثرثرة عندما حددوا بأنفسهم فرصة الكلام لكل خطيب بخمس عشرة دقيقة . لقد انقذت هذه الحصافة فعالية باندونج من طوفان كلامي من شأنه ان لا يدع مجالا للعمل الايجابي . وانه لمن الملائم ان نسجل

في السوق

موتى بلا قبور

البغي الفاضلة

مسرحيتان

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة : روائع المسرح العالمي

منشورات دار الآداب

ص. ب. ٤١٢٣

هنا كيف ان « شو آن لاي » قد عبر باناقةعن مدىاهتمامه بالفعالية في احتفاظه بالكلمة اقل من ربع ساعة ، وذلك ليتكلم باسم ستمائة مليون ادمي !..

حقا ان « الكلام مقدس » !.. ولكن المسألة تنحصر في التفريق الضروري بين الكلام والثرثرة !.. فالحق ان هناك اناسا **يستعملون ((القول)) لكي لا يقولوا شيئا على الاطلاق** !.. وكل ما في الامر انهم يستغلون الكلمات كي يصنعوا منها مبالغات خطابية متطايرة في الهواء ، او لاراقة شيء من المداد على صحيفة ناصعة !..

والواجب ان نقرأ حسابا لامر اكيد ورئيسي وهو : ان ميزانيات التاريخ لا تصنع من الاقوال ، ولا من احصائيات لفظية ، ولكنها تمثل في جماع الاعمال المحسوسة وفي « الافكار » التي لها ثقل الاعمال . والواقع ان ميزانيات النشاطات الايجابية هذه، هي تقاويم القيم الثقافية المنبعثة من فصول الثقافة الاربعة التي هي : الاخلاق ، والاستاطيقا، والصياغية ، والمنطق العملي .

اننا بتناولنا لمشكلة الثقافة لم نكن لنفترض اننا سنصنع منها في هذا الفصل دراسة سامقة .. فكل مبتغانا هو الاشارة الى أهميتها على التصميم الشعبي ، وعلى التصميم الجامعي ، بغية استلفات الانتباه الى ضرورة « التوجيه الثقافي» ، تاركين الموضوع معلقا للمداولة التي سوف تقرر في نهاية الامر اذا ما كان هذا التوجيه من شأن اجراءات الدولة حسب ارتباطها الوظيفي بحاجات البلاد ، اعني من شأن اشراف توجيهي جامعي ، أو هو من شأن العكوفات الشخصية واذواق الافراد اعني من مشمولات التعليم الحر .

وتحت أي شكل يراد اعتبار هذه المشكلة فاننا نرى ان الذي يهم البلاد المتخلفة اساسيا هو ان تحدد ثقافتها لتتدارك تخلفها ولتأخذ دورها في العالم بفعالية .

وبطبيعة الحال فكل بلاد تستطيع ان تحل المشكلة بطرائقها الخاصة : اذ يمكن لكل الطرق ان تؤدي الى نفس الاهداف في مواقيت مختلفة .. ولكن القضية تنحصر على وجه الدقة في استبعاد الطرق الطويلة الارتجالية والتمديدية التي لجأت اليها حضارات كانت تمتلك القرون وآلاف السنين امامها .

ففي حدود البيداغوجيا يجب استعمال طرائق من شأنها ان توجه العقليات في اتجاه حضاري ، وتسرع عملية تكونها في ارتباطها الوظيفي بالتطورات الضرورية المنتمية الى هذه الحضارة . فالمشكلة اذ يعبر عنها داخل هذه الحدود تتخطى الاطار القومي لتبتعث في حدود : ((**سياسة ثقافية**)) ، وذلك حسب التعبير الذي اختارته : « منظمة الثقافة الاوروبية » اثناء انعقاد جمعيتها العامة للمرة الخامسة في شهر اوكتوبر سنة ١٩٥٥ ببروكسال

والذي نعنيه هو ان تبتعث المشكلة ــ في هذه البؤرة ــ من مؤتمر للثقافة الافريقاسيوية يجد مبدأه فيما عبر عنه في منشور باندونج الختامي تحت عنوان : « التعاضد الثقافي » .

مالك بن نبي

ترجمة : **الطيب الشريف**

عذابات الليل

يا ويلي .. لو ماتت اضواء الليل !،
ورجعت وحيدا للمنزل
خطواتي تسعى في ضمت ،
كالعائد من تشييع صديق وارته الارض ..!
.. يا ويلي لو اغلقت الابواب !،
وانتفضت اعماقي ورأيت امامي الاحباب
ورأيت وجوها اعرفها تنهال عليَّ بألف عتاب :
ــ يا خائن ، يا نكار الود
ــ يا ذابح اعناق الفرحة ما زالت في يدك السكين
واكاد أصيح : انا مسكين
لكن الاصوات المره
تسرق من فميَ الالفاظ
وأظل الليل أسير عذاب
وعيوني في لهفه
اضواء الفجر
حتى ان لاح يضج سؤال :
« يا ضوء الفجر المنداح
قل لي بالله ولا تكتم
كيف تغلبت بدون سلاح
والظلمة عملاق لا يرحم ؟! »

*

واعود الى ضوضاء اليوم ..
لا راحة حتى في النوم ..!!
والشمس تدور بلا ابطاء
وكعادتنا في كل مساء
نتلاقى يجمعنا شيء
وانا اتمنى لو دار حديث لا ينفد
فأنا أعلم :
ماذا يحدث لو ماتت اضواء الليل
ورجعت وحيدا المنزل !!

القاهرة

كمال عمار